

عنوان المقال : اللغة العربية الفصحى والنمو المعرفي

1. المدخل

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن أسباب تجعل الطفل العربي يُعاني من الضعف في تعلّمه لِلغةِ العربية الفصحى في المدرسة ؛ ونريد في هذا الصدد ربطَ هذه المعانات ليس ببنية اللغة في حدّ ذاتها أو بنطقها، بل بالتطوّر الذهني الذي يحدث خلال السنوات الأولى من حياة الطفل الطبيعية وهو يكتسب لغته الأولى قبل التحاقه بالمدرسة . لقد بيّن علم النفس التربوي والمختصون في العلوم المعرفية أن هناك علاقةً وطيدةً بين اكتساب اللغة والنموّ المعرفي. فماذا يحدث عند التلميذ لما يواجه لغة التدريس وهي تختلف عن لغة الأم ؟ وماذا ينجم عن ذلك الاختلاف اللغوي من حيث التطور الذهني لديه إن لم يُهيأَ للجوّ المدرسي ؟ كيف يُمكن استثمار اللغة العربية الفصحى في الظروف الحالية من أجل النشء قبل انتقاله إلى ميدان التعلّم الرسمي؟

بالإضافة إلى النظر في هذه التساؤلات نسعى إلى طرح هذه الإشكالات : كيف يستثمر الغربيون لغاتهم في كل المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية، وتبقى اللغة العربية الفصحى شبه جامدة في إنتاجها العلمي ؟ وما هو دور السياسة اللغوية في البلاد العربية لتعزيز استخدام النموذج القياسي للغة؟ وبالأخص عند الأطفال قبل سنّ الدراسة؟ وكيف يُمكن لأولياء الأطفال والمجتمع ككل أن يُصبحوا أكثر وعياً بخطورة المسألة ليشاركوا في استعمال صيغة لغوية منطوقة قريبة من الفصحى وهي عملية من شأنها أن تساعد المنظومة التربوية في الحصول على تعليم سلس ونتائج جيدة في المدرسة ؟

2. إشكال استعمال اللغة الفصحى

لا تزال اللغة العربية الفصحى متخلفة تتراوح مكانها وراء اللغات الغربية – وبالخصوص اللغة الإنجليزية – في مسائل الإنتاج العلمي والتكنولوجي والبحث في شتى الميادين ، وذلك بالرغم من القوة

الكامنة في بنيتها اللغوية وخصائصها اللسانية التي أذهلت علماء اللغة قديما وحديثا ، زيادة على كونها لغةً خالدةً خلودَ القرآن. فنتساءل ... كيف ولماذا يستثمرُ الغربيون لغاتهم في كل المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية، وتبقى اللغة العربية شبه جامدة في إنتاجها إلا في الأدب والشعر والمسرح؟ إنَّ السببَ الرئيس في اعتقادنا - وهو جزء من الحوافز وراء هذا البحث - يكمن في إشكال اكتساب اللغة العربية الفصحى عند العرب وكأنها لغة ثانية ، فلا يتعلم الطفل العربي نطقها السليم ولا يُمارس الحديثَ بها إلا لاحقا عن طريق المدرسة وفي محيط القسم فحسب وقد اكتمل اكتسابه لهجته الأم التي تبعد عن لغة التدريس من جهة ، وتختلف بحسب المناطق الجغرافية من جهة أخرى. إنه لجدير بالأخذ بعين الاعتبار هذه الممارسة المزدوجة للغة حيث أنها عين الإشكال المطروح - اللهجة العامية في البيت وفي الأسواق وفي كل الشؤون اليومية من جهة، وينحصر استعمال اللغة الفصحى في الرسميات ووسائل الإعلام المكتوبة والمقروءة وللتعليم والتعلم في المدرسة .

إن هذه الازدواجية في اللغة العربية من الأسباب الرئيسة التي تُعيق النموَّ المعرفيَّ عند لطفل ، في حين أن المتعلم الإنجليزي مثلا يأتي إلى المدرسة وقد تمَّ اكتسابه لمهارتي الفهم والتحدث بكل عفوية وبدون عناء في لغة الأم وهي تساوي أو تكاد تُعادل لغةَ التدريس الرسمي ، فيكون عندها مهيبًا لاستيعاب المعارف الأساسية التي تجعله يتفوق في إدراك المفاهيم خلال الدراسة الأساسية ، وينتج عن ذلك مستوى جيد. فالهدف المنشود بالنسبة إلى التلميذ العربي هو أن يكون مستعدًا من حيث اللغة المعيارية لما يباشر التعليم الإعدادي، وبالنسبة للمجتمعات العربية أن يتواصلوا حتى في حديثهم اليومي بلغة راقية تسمح لهم بالتعبير عن شؤونهم ومشاعرهم في الأساليب اللغوية الموجودة بغزارة في العربية الفصحى.

3. توحيد اللغة أو اللغة القياسية Standardization

إن الإنسان تفرّد عن سائر المخلوقات بالكلام الذي منحه الله إياه، وبفضل اللغة يُدرك معاني الأشياء ويستطيع التعبير عن أفكاره ومشاعره، يتعلم ويُعلّم، ويتواصل مع الآخر. ومن خصائص اللغة الطبيعية أنّها تأتي في أشكال مختلفة وأنماط متعددة في المجتمع الواحد وذلك حسب عدد من العوامل منها الجغرافية كما يدرسه علماء اللهجات، ومنها الاجتماعية كالسنّ والجنس والطبقة الاجتماعية كما يُبيّنه علم اللغة الاجتماعي. وبالرغم من وجود وتطور اللهجات المختلفة ضمن اللغة الواحدة إلاّ أنّه بحكم الغريزة التي تدفعنا للعيش معا تحتاج الأمة الواحدة أو الوطن إلى لغة موحّدة وموحّدة في شؤون شتى تخدمها كالإدارة والحكومة، والدين والقضاء، والعلم والتعليم، والقراء والكتابة، والإعلام والنشر، وتدوين الثقافة والتاريخ ...

كانت الدول الأوروبية سابقا تتميز بعدد لا يُحصى من اللهجات المختلفة يكاد الأقوام داخل القطر الواحد لا يفهمون بعضهم بعضا، فعمل كل حاكم على توحيد اللغة فكانت حتما لهجة الملك والبلاط الملكي في العواصم كباريس في فرنسا (1635 إنشاء الأكاديمية اللغة الفرنسية) ولندن في بريطانيا (القرن 15). لقد أخذت جهود كبيرة وإجراءات صارمة من أجل فرض اللهجة المرموقة ، فوضعوا لها قوانين نحوية وصرف، وكتب وقواميس لتُصبح اللغة المعيارية المتداولة ليس في المجالات الرسمية فحسب بل حتى في الحديث اليومي ممّا يُبطلُ تغييرها وتغييرها عبر الزمن . ففي هذا الصدد، يقول الكاتب الإنجليزي المشهور جوناثان سويفت (1712): "لا أرى أية ضرورة مطلقة أن تكون اللغة في تغيير دائم، فنجد العديد من الأمثلة على عكس ذلك"¹ (ولربّما كان يشير إلى اللغة العربية الفصحى التي لم تتغير لأكثر من 15 قرناً)، ولو أنهم يُقرّون اليوم بوجود صيغ مختلفة من اللغة الإنجليزية المعيارية حسب البلد لكن باختلافات طفيفة.

فمن مرحلة طويلة كانت لا تكاد تُكتب فيها اللغة الإنجليزية مثلا وكان الناس يتحدثون بلهجات متباينة أحيانا لدرجة عدم التواصل بينهم، أصبحت موحّدة وبها تطوّر العلم والتعليم، واستُعْمِلت في السياسة والاقتصاد والتجارة وما إلى ذلك حتى صارت قويّة فوصلت إلى درجة غزو أنحاء من العالم، وتقود المعمورة اليوم تحت عنوان العولمة.

وبالنسبة إلى الأطفال في تلك البلاد وتعليمهم فكانت تُفرض عليهم اللغة المعيارية في المدرسة وحتى خارج القسم إلى حدّ أن كان يُضرب التلميذ الذي يتكلم بلهجته ! فكانت النتيجة أنّ بعد فترة من الزمن اقتربت اللهجات من اللغة المقياسية التي صارت تُكتسب اليوم كلغة الأم في الكثير من المجتمعات اللغوية، وكان ذلك سببا واضحا في سهولة تعلّم الأطفال المهارات الأساسية في المدرسة وفي نموّهم الذهني وبالتالي في رفع مستواهم الدراسي.

أمّا في المجتمعات العربية كانت العملية عكسية تماما مقارنة بما حدث في العالم الأوروبي. وبالفعل كانت لغة العرب موحّدة إلى حد بعيد في زمن نزول القرآن وبقيت كذلك لبضعة قرون وذلك خلال الفتوحات الأولى حيث كانت اللغة المنطوقة شبه متطابقة مع المكتوبة (بلاو 1973 ؛ فرستنيك 1984). وقد بينت كتب السيرة أنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يتكلم لغة قريش وهي لغة القرآن بعينها كما ثبت، وبفضل نخبة

¹ 'I see no absolute necessity why any language should be perpetually changing; for we find many examples to the contrary' (J. Swift, *Proposal for Correcting, Improving, and Ascertaining the English Tongue*, 1712).

من المهتمين باللغة ومخافة انتشار اللحن والأخطاء في تلاوة القرآن، دُوّنت قواعد النحو والإعراب والعروض وعلم الأصوات وكل ما يتعلق باللغة السليمة فحُفظت العربية الفصحى في الكتب بعد حفظها في القرآن حيث يقول الله عزّ وجلّ عن كتابه العزيز { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } .

إلا أنه مع مرّ الزمن واختلاط الشعوب والألسن بدأت اللغة تتباعد ونشأت لهجات عامية تختلف عن بعضها البعض حتى صار الناس في الشرق لا يكادون يفهمون أقوام الغرب فتشعبت اللغة العربية وتغيرت قواعدها النحوية وبنيتها الصوتية وتضاءلت غزارة مفرداتها كما اختلطت بلغات أخرى طغت عليها.

لكن لحسن الحظ وبفضل الكمّ الهائل من الكتب وغزارتها في علوم القرآن والسيرة النبوية، والآداب والفلسفة والعلوم الفلكية والطبية وما إلى ذلك، ظلّت الفصحى محفوظة إلى يومنا بالرغم من اجتياز الأمة بالتفرقة من جهة والاستعمار من جهة أخرى. لكن نعود ونكرّر الإشكال وهو أنّ الطفل العربي يصل إلى سنّ المدرسة وهو لا يُتقن إلاّ لهجة عامية مُشوّهة تفتقد معايير النحو والصرف وتفتقر إلى كم هائل من المفردات الموجودة في اللغة الفصحى، وقد سُمّي هذا الفرق الشاسع بين العامية والفصحى بالازدواجية.

4. الازدواجية في اللغة العربية

من المعلوم أن لُغة العربية مستويين متباينين: الفصحى والعامية كما ميّزهما بعض المهتمين بالأمر منهم المستشرق الفرنسي ويليام مارسي (William Marçais 1931) الذي بيّن الفرق الشاسع بينهما قائلاً:

« اللغة العربية تتمثل لنا في شكلين مختلفين (تماماً): 1. لغة أدبية [...] والتي تُسمى العربية المكتوبة ،

2 . لهجات منطوقة...اللغة الوحيدة للتحدّث... »²

وكان وليام مارسي يُشجع تعليم وتعلم اللهجات المغاربية وهو مدير المدرسة في تلمسان أثناء استعمار الجزائر وشاطره الكثير من الناس ككولين (G.S. Colin 1945) الذي بيّن ضغينته ضد اللغة العربية قائلاً: « لا يمكن في الوقت الحالي لا للعربية الكلاسيكية [الفصحى] ولا للعربية الشائعة [الدارجة] أن تحلّ لوحدها المشكلة اللغوية المغربية، يوجد خيار ثالث: انتشار الفرنسية، واستخدامه من قبل المغاربة كلغة للثقافة.»³

² « La langue arabe se présente à nous sous deux aspects sensiblement différents : 1) une langue littéraire, dite arabe écrit [...] 2) des idiomes parlés [...] , la seule langue de la conversation. » (William Marçais, 1930: 401).

³ « Ni l'arabe classique ni l'arabe vulgaire ne semblant permettre actuellement de résoudre à eux seuls le problème linguistique marocain, une troisième solution se présente : la *diffusion du français*, et son emploi par les Marocains comme langue de culture. » (G.S. Colin 1945:244)

يُعتبر تشارلز فيرجوسن (C. Ferguson 1959, 1970...)، الباحث الأمريكي في اللسانيات، أول من أدخل المصطلح *diglossia* في علم اللغة الاجتماعي إذ اعتبر ازدواجية اللغة ظاهرة سوسيو- لسانية تتعلق بوجود نوعين أو بالأحرى مستويين من نفس اللغة مُتعايشين في المجتمع اللغوي. وكان فيرجوسن الأكثر شهرة بالسهر على فهم وتحليل ظاهرة *الدّايغلوسيا* في عدد من الحالات في العالم، لكنّه أولى اهتماما كبيرا للغة العربية وازدواجيتها، فمیز بوضوح الميادين التي تُستعمل فيها الفصحى عن الظروف اليومية العادية التي تُسمع فيها اللهجة العربية، وقد اكتفى بوصف المستويين بدون أي تحييز. فالمفهوم يُطلق على وجود لغة واحدة بمستويين متباينين وتُستعمل في المجتمع اللغوي بطريقة متكاملة حيث أنّه مبدئيا لا نجد اللهجة العامية في الحديث العادي ('المتغايير الأدنى' Low variety) مكان اللغة الفصحى ('المتغايير الأعلى' High variety) وهي تتميز بمكانة مرموقة عند أفراد المجتمع حيث تُستعمل في المواقف الرسمية والدينية ووسائل الإعلام والتعليم والأدب وفي كل ما يُكتب، ولا يوجد أيّ مجتمع لغوي تُكتسب فسها الفصحى إلا عن طريق التدريس. أما اللهجة أو العامية فهي لغة الأم المكتسبة بطريقة عفوية ويُعبّر بها أفراد المجموعة اللغوية عن كل شؤونهم اليومية ولكنها تفتقر إلى هيبية الفصحى وقوتها.

فاللغة العربية الفصحى أنزل بها القرآن ودوّن بها الحديث فأصبحت لغة التراث العربي الإسلامي وكُتبت بها شتى العلوم لقرون عديدة ؛ واليوم، من دون أن تتغير بنيتها أو تنقص غزارتها في الألفاظ والمعاني، هي اللغة الرسمية في كل الدول العربية وحتى بعض الدول الغير عربية يدينُ أقوامها بدين الإسلام فحافظت على قداستها. ولكن بينما تُستعمل الفصحى في المجالات الرسمية والإدارية وفي وسائل الإعلام والتعليم وما إلى ذلك، واكتسبت بذلك هيبية عظيمة ومواقف إيجابية تجاهها، يُمارس الناس لهجاتهم المختلفة في حديثهم اليومي وتواصلهم حول الأشياء العادية. إلا أنّ الغاية التي نسعى إليها إن أردنا تطورا حقيقيا في كل الميادين الحيوية هي رفع المستوى لا في التعليم والتعلم فحسب بل في التعبير عن الفكر والشعور وكل ما يخص الأنشطة والأعمال المتداولة بين أفراد المجتمع، ممّا يُؤدّي إلى التخلّص من ظاهرة الازدواجية.

ومن بين العوامل الذي أصرّ عليها فيرجوسن استقرار هذه الظاهرة اللغوية واستمرارها بدون تغيير لقرون عديدة فيقول : ” يبدو أنّ الازدواجية العربية تعود إلى أبعد ما نعرفه عن العربية وبقية اللغة الكلاسيكية، المهيمنة مستقرّة نسبياً “⁴. إنّ هذا الاستقرار من الأسباب التي تُبقي الناس عامة والمتعلمين خاصة بعيدين عن ممارستهم للغة الرقية وبالتالي عن التطور في المعرفة والإنتاج العلمي عند الأمة العربية.

⁴ “Arabic diglossia seems to reach as far back as our knowledge of Arabic goes, and the superposed 'Classical' language has remained relatively stable” (Ferguson, 1959. In Huebner 1996:26).

لكن يبدو الآن – وهذا ما نرنو إليه – أنّ وضعية الازدواجية العربية في تغير إذ بدأت تفقد من هذا الاستقرار ولو بصفة تدريجية. وبالفعل، من السهل اليوم ملاحظة استعمال صيغة لغوية في الحديث تكون أحيانا قريبة من اللغة الفصحى خاصة عند الشباب والطلبة وهم يتحدثون في مواضيع جادة علمية كانت أو سياسية أو ثقافية، وذلك لأنهم لا يجدون الألفاظ والعبارات المناسبة لنقل أفكارهم وآرائهم في العامية. وهذا ما نلاحظه في المجتمع الجزائري مثلا، فمنذ أن اتُخذ قرار إعادة تعريب التعليم والإدارة عادة الاستقلال وبعد أكثر من قرن من التعامل باللغة الفرنسية في الميادين الحساسة، الكلّ يدرس بالفصحى وإن بقيت محصورة في حيز المدرسة والكلام الرسمي.

لكن لم تكن الخطة محكمة ولم تقم العملية على أسس علمية باستعانة المختصين في اللسانيات وعلماء النفس وعلماء الاجتماع، فكانت النتيجة بطيئة جداً إذ لا يزال المستوى العام في اللغة والعلم ضعيفا بعد نصف القرن من الاستقلال، بل أيقن بعض الناس أنه لا نستطيع النهوض بقواعد الدولة إلا بالرجوع إلى الفرنسية أو عن طريق اعتماد الإنجليزية كلغة للعلوم والتكنولوجيا والاقتصاد والتجارة. لكن بالرغم من هذا، لنا الأمل في الأجيال الناشئة الذين يعتزّون بلغة الضاد ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى التدريس الإجمالي باللغة الفصحى انطلاقاً من الطور الابتدائي، إلا أنّ المناهج التربوية غير متقنة والبرامج المدرسية غير مناسبة لاكتساب اللغة وممارستها ولا تتماشى والتطور المعرفي.

5. اكتساب اللغة والنمو المعرفي

للغة العربية الفصحى دورٌ رائدٌ يُمكن استعادته إذا توفّرت الشروط وتضافرت الجهود لجعلها لغةً طبيعيةً يتحدث بها الفرد والجماعات في شؤونهم العادية ولغةً تواصل في كل المجالات انطلاقاً من البيت وبيئة الأطفال. وعلى هذا الأساس يتم استثمارها في شتى الميادين الاجتماعية كانت أم علمية، فقد بيّن التاريخ وعلماءه أنه لا يقوم بناء حضارة إلا على أسس متينة، واللغة هي العمود الفقري الذي يرتكز عليه قيام ورقيّ الشعوب. ولنا أحسن مثال في اللغة العربية التي أبهرت العالم بقوتها وغازرة بنيتها وألفاظها ومعانيها فبفضلها، وبفضل الدين الذي أتى بها، قادت العالم تحت ظلّ الحضارة الإسلامية وازدهارها، ووصل نفوذها حتى قال المؤرّخ والفيلسوف الفرنسي كوستاف لوبون (Gustave Le Bon 1884): "إن اللغة العربية أصبحت اللغة العالمية في جميع الأقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماماً اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية...". وقال مُنصف آخر، جورج ريفوار (Georges Rivoire): "إن نفوذ العربية أصبح بعيد المدى، حتى أن جانباً من أوروبا الجنوبية أيقن بأن العربية هي الأداة

الوحيدة لنقل العلوم والآداب“ . لكن بعد الأحقاب الذهبية للأمة العربية الإسلامية، ضعفت الأمة وتشتت شملها فاستعمر الأوروبيون أقطار البلاد العربية وعملوا على طمس اللغة والدين معا وبذلوا كل ما بوسعهم لذلك، ولولا قوة هذا الدين ولغته لكننا اليوم دويلات متشرذمة . أفلا تستحق هذه اللغة العظيمة أن تُعنى كل العناية فيُستثمر ما فيها من قدرة استمدتها من القرآن ؟ ألم يحن الأوان أن نجعل هدفنا الأسمى أن يتكلم أطفالنا العربية الفصحى منذ نعومة أظافرهم ؟

ولكن لا تتحقق هذه الغاية إلا باكتساب مبكر وتدرجي لشكل منطوق من اللغة الفصحى ولو كان ذلك بالتوازي مع لغة الأم في المرحلة الأولى. ولا يُمكن تحقيق الرجوع إلى الفصحى إلا بتنفيذ سياسة لغوية – كما فعل غيرنا من الأوروبيين لما تفرقت لهجاتهم – ، وينبغي أن تكون سياسة حازمة تُحث الناس على استخدام لغة تقترب من اللغة الرسمية في كافة المجالات وبإعانة البيئة التي تُحيط بالطفل مما يجعل قدراته الذهنية تنمو وتستعدّ للحصول على المعرفة عند التحاقه بالمدرسة.

لقد أحدثت النظرية المعرفية ثورة هائلة في أوساط العلوم النفسية والتربوية، فأدت إلى طرق جديدة في التفكير والبحث حول العقل البشري والذكاء ، وإذا كان هذا العلم متعدّد التخصصات فأعطى علماءه قسطا وفيرا لدراسة العلاقة بين الإدراك واللغة ومدى تأثير كل منهما على تطور الآخر. فالنظريات التي تهتم باكتساب لغة الأم تُبين أن عملية استقبالها واستيعابها عند الطفل مرتبطة ارتباطا وطيدا بنموه المعرفي كما بيّنه المفكر السويسري 'جان بياجى' (Jean Piaget) بطريقته مؤكدا أنّ القدرة على اكتساب الكلام وإنتاجه يتوقف على إدراك المفاهيم ومعرفة البيئة حول الطفل فيكتسب البناء اللغوي في مرحلة مبكرة من حياته، انطلاقا من السنة الثانية أو الثالثة . يقول بياجى في كتابه المشهور حول التطور النفسي عند الطفل⁵ :

“...إنّ النموّ العقليّ خلال الثمانية عشر شهرا الأولى من الحياة يكون سريعا جدا وذا أهمية خاصة لأنّ الطفل في هذه المرحلة يُصمّم جميع البنية التحتية المعرفية التي من شأنها أن تكون بمثابة نقطة انطلاق لإنشاء الإدراك الحسي والفكري في وقت لاحق...”

وفي نموذج عالم النفس الروسي فيجوتسكي (Vigotsky) ، تطوير اللغة هو المحرك الرئيسي للتنمية نظرا لارتباطه بالحياة الفكرية والاجتماعية، ويفترض بذلك أنّ النموّ المعرفيّ ليس مستقلا عن الرموز اللغوية التي يتعرض لها الطفل من خلال تفاعله مع البيئة، بل اللغة ضرورية لتنميته.

⁵ «[...] le développement mental au cours des dix-huit premiers mois de l'existence est particulièrement rapide et particulièrement important, car l'enfant élabore à ce niveau l'ensemble des substructures cognitives qui serviront de point de départ à ses constructions perceptives et intellectuelles ultérieures »

إنّ القدرة على فهم اللغة واكتسابها عملية بالغة التعقيد، والعجيب في الأمر أنه في المقابل تُكتسب تلك القدرة بكل سلاسة وعفوية في غضون السنين القليلة الأولى من عمر الطفل، ويتم ذلك من دون أن يشعر بقوانين النظام اللغوي كما يرى تشومسكي (Noam Chomsky 1965)، العالم الأمريكي في اللسانيات الذي افترض وجود شيء ما في الدماغ يكون مستعداً لهذا التعلم الفطري للغة الأم فسمّاه "جهاز اكتساب اللغة" (Language Acquisition Device) ويرى أن الإنسان يولد بمعرفة فطرية لبنية اللغة كامنة في المخّ وسرعان ما يبدأ هذا الجهاز المفترض بالتفاعل مع البيئة الاجتماعية والمفاهيم الرمزية واللغوية التي يتعرّض إليها الطفل، ممّا يزيد في التعقيد لفهم وتصوّر عملية اكتساب اللغة والتطور المعرفي. بخلاف نظرية السُّلّكيين، يذهب تشومسكي إلى القول أن اكتساب اللغة الأولى لا يتمّ بمحاكاة الكلام عند أفراد الأسرة البالغين فحسب، بل أيضاً وبشكل أهمّ عن طريق استخراج القواعد الصوتية والنحوية من اللغة المسموعة وكأنّ معرفة اللغة والقواعد النحوية مضمنة في التشفير الوراثي ولا تحتاج إلا للتفعيل لبدء العمل، وهذا ما جعل تشومسكي يُطلق على الظاهرة مصطلح 'النحو العالمي' (Universal Grammar).

إنّ هذه العلاقة الوثيقة بين اكتساب اللغة الأولى عند الطفل وبكل عناصر نظامها اللغوي وبين نموّه المعرفي هي التي تهّمنا في هذا البحث إذ نرى أنّ المستوى المتدنيّ في النظام الدراسي نتيجته عدم أو ضعف الصلة بين المهارات الذهنية التي تطورت عند النشء على أساس العامية وبين العربية الفصحى لغة التدريس. إنّ منظمة اليونسكو (UNESCO 1953) تُشجع التدريس بلغة الأم في مرحلة الطفولة المبكرة وفي التعليم الابتدائي لما في ذلك من أهميّة. وبالفعل، أبرزت الأبحاث في اللسانيات وعلوم التربية وعلم النفس أنّ التعليم الابتدائي يكون أفضل بكثير إذا كان بلغة الأم على الأقل في المرحلة الأولى بالمدرسة كما جاء في النص⁶:

"من البديهي أن أفضل وسيلة لتعليم الطفل هو لغته الأم. نفسياً، هي نظام من العلامات ذات معنى تعمل في ذهنه تلقائياً للكلام والفهم. اجتماعياً، هي وسيلة لإثبات هويته في المجتمع الذي ينتمي إليه. تربوياً، إنه يتعلم بسرعة أكبر من خلالها مقارنة بوسيلة لغوية غير مألوفة." (اليونسكو 1953: 11).

⁶ "It is axiomatic that the best medium for teaching a child is his mother tongue. Psychologically, it is the system of meaningful signs that in his mind works automatically for expression and understanding. Sociologically, it is a means of identification among the members of the community to which he belongs. Educationally, he learns more quickly through it than through an unfamiliar linguistic medium." (UNESCO 1953, p. 11).

ومن جهة أخرى تدعو اليونسكو إلى تزويد الأطفال بالتعليم بلغتهم الأم انطلاقاً من السنة الثالثة من عمرهم كي يكونوا مجهّزين للتدريس الرسمي .

لكن الذي نقترحه في هذا المقال هو أن يتعلّم الطفل العربي لغةً الأمّة وليس لغةً الأم وذلك لثلاث سنوات قبل الالتحاق بالمدرسة فيكون عنده مهياً لاكتساب المزيد من العلم في المدرسة حيث يشتغل بتعزيز نموّه المعرفي وذكائه عوض اشتغاله بتعليم لغة تكاد تكون غريبة عنه. وكما صرّحنا في مقالنا (2013)،

"إنما غاية هذا العمل هو أن تُصبح العربية الفصحى اللغة الأمّ لكلّ عربي كما أنّ اللغة الإنجليزية المعيارية هي اللغة الأولى للملايين من المتكلمين في بريطانيا والولايات المتحدة وغيرها من البلاد."

وكما سلف الذكر، إنّ الازدواجية العربية أصبحت عائقاً للتطور بكل أبعاده ولا نخرج من هذه الدوامة إلا يومَ يتخلص العالم العربي من استقر 'الدايغوسيا' الذي ذكره فيرجوسن وتصبح الفصحى هي لغة التعامل اليومي أو نمط منطوق لا يكون بعيداً عنها. يقول محمد راجي الزغول (رحمه الله) ليؤكد هذا الرأي:

" لقد اعتُبر الوضع الازدواجي في أية لغة أنه يشكل عوائق مختلفة للناطقين بتلك اللغة؛ كما اعتبره الكثير من الباحثين عائقاً للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي. "

فإنّ ازدواجية اللغة العربية هي التي تُسبّب الارتباك عند الطفل لما يلتحق بالمدرسة فهي سبب تدنّي المستوى عند التلميذ والطالب ولا يستطيع المجتمع العربي الرقي والتقدم إلا بالرجوع إلى لغته.

6. الخلاصة

بالرغم من تاريخ اللغة العربية العريق وعلاقتها بالقرآن والإسلام، وبالإنتاج الضخم في شتى الميادين ، ورغم قوتها الكامنة في بنيتها اللغوية وإدراك كل ذلك من قبل العرب ، لا تزال اللغة العربية متخلفة وراء اللغات الغربية - وبالخصوص اللغة الإنجليزية - في مسائل الإنتاج العلمي والتكنولوجي والنشر والإعلام، وبالطبع ليس السبب اللغة العربية بل الأمة العربية.

إنّ مشروع جعل العربية الفصحى اللغة الأولى التي يكتسبها الطفل ليس أمراً مستحيلاً ولا خيالياً إذا توفرت الإرادة عند الفرد والجماعات وسياسة لغوية من قبل السلطات باستعانة مختصين في اللسانيات والتخطيط اللغوي. وعلينا أن نُعطي هذا المشروع الأهمية اللازمة موقنين أنّ النتيجة ستكون لصالح أطفالنا

وتقدمهم في العلم والمعرفة، ويترتب عن ذلك تطور شامل في العالم العربي من حيث الإنتاج العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والتجاري وما إلى ذلك من أمور تنفع الحضارة. ويُمكن تنظيم حملة واسعة لتوعية أولياء الأطفال وأقاربهم من أجل تشجيع استعمال الفصحى ولو بشكل بسيط وذلك خلال السنوات الأولى من حياتهم. فقد بدأ البعض بتطبيق تعليم الأطفال اللغة الفصحى كما رأينا في تجربة الأستاذ الدكتور عبد الله مصطفى الدنان في سوريا وبلاد عربية أخرى. وقد بينّا في مقال آخر كيف يتعلم الأطفال اللغة الفصحى بكل سهولة في الروضة ويتكلمون بسجية وتلقائية وهم في السن الثالثة والرابعة من عمرهم، وكيف أصبحوا اليوم أذكي التلاميذ في المدرسة وأفضلهم في التحصيل في السنوات الأولى من الطور الابتدائي، وذلك ما يشهده معلموهم وأولياؤهم.

المراجع

محمد راجي الزغول . 2008 " ازدواجية اللغة " – جامعة اليرموك ، الأردن.

References

CHOMSKY, N. 1965. *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge: The MIT Press.

COLIN G. S., « Les parlers », *Initiation au Maroc*, Vanoest, Paris, 1945, p. 191-247.

MARCAIS, W. 1930 « La diglossie arabe », dans l'Enseignement public . In *Revue pédagogique*, tome 104, n° 12, pp.401-409.

FERGUSON, C.A. 1959. "Diglossia" in HUEBNER, T (Ed. 1996). *Sociolinguistic Perspectives: Papers on Language in Society*. Oxford University Press; New York.

NELSON, K. 1996. *Language in Cognitive Development: the Emergence of the Mediated Mind*. CUP.

PIAGET, J. and INHELDER, B. 1966. *La psychologie de l'enfant*. Paris PUF.